انتشار الحضارة البونية بنوميديا

د. عمروس فريدة*

يعتقد الكثير من المؤرخين أن استمرار التاريخ بشمال إفريقيا ما هو إلا تتابع وتعاقب لتأثيرات أجنبية، ابتداء من الحضارة الفنيقية مرورا بالحضارة الرومانية والوندالية إلى غاية الوجود البيزنطي و التي قضت على الحضارة الليبية.

وإدا قرأنا " بوليبيوس وبعض المؤرخين الدين جاؤوا بعده نجد أنفسنا كأننا ندين لأسلافنا لقيامهم بالدور السلبي عندما نتخيلهم مند بداية التاريخ، كمستقبلين لحضارة شرقية جاهزة فقابلوها بكل ارتياح قد يكون بعض البحارة الآتيين من المشرق هم الدين جاؤوا بكل عناصر الحضارة للمجموعة البشرية القاطنة بشمال إفريقيا و البعيدة كل البعد عن الحضارة.

وعندما نركز على الدراسات الأثرية المختلفة حول هدا المحور، فنجد أن منطقة شرق شمال إفريقيا مند قرون عديدة عرفت تبادلات تجارية وثقافية مع شبه الجزر الأوروبية ويلاحظ أن هده التبادلات قد أدخلت مبادئ حضارة متوسطية (٢) .

مهما قال " بوليبيوس فإن النوميديين لم ينتظروا " ما سينيسا" لزرع سهولهم الخصبة (٣) والمقابر الميقاليتية الكبيرة تأكد من خلال وجودها وبأعداد هائلة (تتعدى الآلاف أحيانا) على وجود مجموعات بشرية ربما فلاحين مستقرين في مناطق معينة. إضافة إلى دلك نجد أنواع الفخريات توضع ضمن هده القبور والتي تحمل تقنيات وزخارف بقيت سائدة إلى يومناهدا (٤).

1- Gsell.(st). Histoire ancienne de l'Afr. Du Nord (Polype, xxxvi, 16) T.V, P 137

2- Camps (G). Massinissa ou le début de l'histoire, 1969

3 - Camps (G). Réflexions sur la pénétration de la civilisation punique en Numidie,1975,p.1.

4 - Camps (G). Recherche sur l'antiquité de la céramique modelée et peinte en Afr. Du Nord Dans Libyca, t-3.p.345

* جامعة الجزائر .

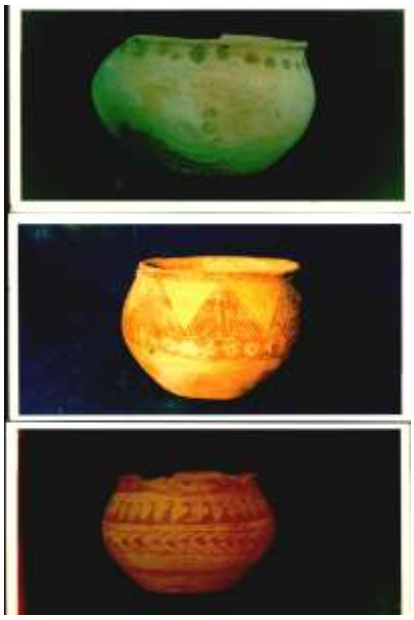

إذن يمكننا إعتبار هذه المعالم السابقة لعهد " ماسينسا" كدليل قاطع على ما أصدره بوليبيوس من حكم فندته الدلائل الأثرية فمدينة قرطاجة منذ نشأتها، استوجب عليه الخضوع لشروط ومتطلبات آتية من سلطة قوية ومتكاملة، وليس من طرف مجموعة رحالة قد يكون من السهل التخلص منها بعرض قوتها العسكرية فقط.

في الحقيقة قد كانت قرطاجة تدفع ضريبة وبصفة مستمرة للملك اللإفريبقي تتمثل تلك الضريبة بقيمة مالية مقابل كراء الأرض التي حددت بواسطة جلد الثور الأسطورية ، أكثر من ذلك عندما إنتحرت الملكة "إليسا ديدون" ملكة قرطاجة، كان ذلك لغرض التخلص من الضغوطات الكبيرة التي مارسها ضدها الملك النوميدي "هيارباس" ملك المكزيتاني"[1] منذ أن عرفت قرطاجة نشأتها، عرفت صراعا قائما بين عنصرين أساسيين في تكوينهما للمدينة التجارية الشرقية والهيمنة الليبية .

هذا النفوذ والسيطرة الليبية إستمر حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد حيث إستطاعت قرطاجة أن تشكل فيها إمبراطوريتها، وذلك رغم إستمرارها في دفع ضريبتها.

ان إلتقاء هذه العناصر الشرقية والافريقية أعطت مفهوما آخر للوجود القرطاجي، حيث ظهرت بما يسمى بالحضارة البونية .

[1] -Desanges(J) , Rex Muxitanorum Hiarbas, (Justin XVII) P : 304-308

أوجدت تقاليد بونية حية وراسخة عند الآفارقة القدامى ذلك راجع بالخصوص لكونها ليست غريبة عنهم وإنما نشأت في أوساطهم وضمن المجتمع الإفريقي.
لذا يجب علينا التخلي عن هذه المفاهيم المقيدة و المرتبطة بمنظور الدولة والحدود والإقليم والممالك[٢].
من جهة أخرى فإذا كانت عداوة حقيقية موجودة و بصفة مستمرة بين قرطاجة و الأفارقة كما يتضح ذلك من خلال القائمة الخاصة بالحروب و الانتفاضات التي ذكرها الباحث [٣]st-gsell ، إستنادا إلى ما كتبه من قبل المؤرخون و الكتاب و الأدباء القدماء .
فنحن لا نفهم كيف يمكن أن تكون لقرى صغيرة .، حتى و إن كانت محاطة بأسوار في استطاعتها البقاء في شكل متسلسل على طول الساحل النوميدي والموري ؟
ومهما كانت قوة قرطاجة فإنه لم يكن باستطاعتها بسط سيطرتها على الملوك النوميديين في المنشآت الساحلية. و يتضح ذلك جليا (عدم السيطرة القرطاجية على أراظي إفريقيا) في معاهدة سنة ٢٠١ ق-م، و نتائجها .
نحن نعلم أن "Scipion " قد اعترف لقرطاجة بملكية الأقاليم الواقعة في شرق المملكة، إلا أنه كان للملك: "Massinissa " حق المطالبة بها وضمها إلى حدود الأراضي التي كانت تابعة لأجداده، لقد استغل الملك المسيلي هذا البند الذي كان في الحقيقة هو السبب الرئيسي في نشوب الحرب البونية الثالثة .
لكن لا يجب أن نجر أنفسنا وراء سراب المقارنة التاريخية .
فماسينيسا و إن كان هو من أصل نوميدي فهو بوني أيضا لا يختلف عن القرطجيين لا من حيث الجانب التكوين البنيوي و لا الثقافي ، بل كان يجري في عروقة الدم القرطاجي مثلما كان يجري الدم الإفريقي في عروق حنبعل "Hannibal "
كما لا ننسى تلك التحالفات التي أقيمت بين النوميديين والقرطاجيين عن طريق المصاهرة بين الحكام الأفارقة والطبقة الأرستوقراطية القرطاجية فالتاريخ يحفظ لنا ذكرى عدد كبير من المصاهرة ومن وعود الزواج بين الهويتين نذكر على سبيل المثال : وعد "هاملكار"Hamilcar لزواج إحدى بناته لـ :" نرافاس " Naravas أثناء حرب المرتزقة. ولنا مثال آخر وهو لزوجة عم "ماسينيسا" "أوزلاس" Oezalcesالتي

2 - Camps (G) , Reflexions sur la pénétration de la civilisation punique en Numidie ,1975, p : 3.

3 - Gsell (st) , Histoire ancienne de l'Afrique du nord , t.v p-187 ; (polype, xxxvI , 16 ; strabon , xvII, 3,15 Appien ,106).

هي إبنة أخ "حنبعل" [٤] كما نعرف أيضا القصة المأسوية لـ : "سيفونيسا" Sophonisbe و "ماسينيسا" الذي ترعرع في قرطاجة حسب المؤرّخ اللاتيني "أبيان" Appien [٥] وزوّج إحدى بناته لأحد القرطاجيين: وقد نشأ من هذا الزواج إبن سمي "أذربعل" Adherbal.

فلهذا لم يكن عبثا اختيار الأمراء والقادة النومديين ، فكانت قرطاجة بمثابة بلدهم الثاني، وكذا العائلات الملكية بطلب أيدي بنات الطبقة الأرستوقراطية البونية، واللواتي بالاضافة إلى الحلي والعطور، كانت تجلبن معهن معتقدات و آلهة صورTYR ، وبوادر السياسة القرطاجية. لم تكن إفريقيا أكثر بونية إلا بعد هزيمة ١٤٦ ق.م، حيث يحفظ لنا التاريخ "الصورة الرمز" لأبناء "ماسينيسا" وهم يتلقون من أيدي "سيبيون امليان" Scipion Emilien الوثائق التي أنقذت من الحريق الذي أصاب المدينة كبرهان مادي للأرث الروحي القرطاجي [٦] والعداوة التي كانت قائمة بين الماسيل و القرطاجيين لم تكن أكبر وأشد من العداوة التي كانت قائمة بين الماسيل والمازسيل.

ويحتمل أن يكون أكبر عدد من المدن البونية وجدت خارج الإقليم القرطاجي، خاصة أنّ هذه المدن الساحلية كانت تقريبا كلها تحمل أسماء فينيقية وبعضها فينيقية- ليبية ، مثل مدينة "روسوكور" Russucuru وأخرى تحمل أسماء نوميدية مثل مدينة "سيقا" Siga

منذ أن نشأت هذه المدن الساحلية، فقد كان من العادي والضروري أن تستقبل المنتوجات الحضارية المتوسطية، القرطاجية منها و الأيونية والأتيكية. فلا يمكننا أن نأخذ من ذلك حجة لنجعل منها الأصل الحقيقي.

بإحتواء مدافن أهالي هذه المدن على الآثاث الجنائزي المحلي، كالمدافن والقبور الريفية المعروفة وكونها توحي بطقوس جنائزية غير معروفة عند الفنيقيين، يعتبر هذان المؤشران اللذان لا يمكننا الاستهانة بهما، من حيث أنهما يوضحان لنا جليا طبيعة السكان القاطنين فيها رغم أنها تحمل أسماء فينيقية.

أحسن مثال على ذلك هو مدينة كرتة (سيرتا) التي تحمل إسما من أصل فينيقي وفي نفس الوقت متشبعة بالثقافة البونية. فهي لم تكن أبدا تحت السيطرة القرطاجية ولا تابعة لها في آية فترة من تاريخها ، بل كانت عاصمة النوميديين المسيل[٧].

و لدينا مثال آخر لتأكيد ذلك والمتمثل في مدينة Volubilis التي تقع في منخفض جبل زرهوم بالمغرب الأقصى و التي ربما كانت عاصمة المملكة المورية، قد وجدت قرونا

4 – Camps (G) ibid P. 5

5 – Gsell (St) HAAN, Appien, 106

6 - Camps (G) ibid P . 8

7 - Camps (G) ibid P . 10

قبل حكم الملك "يوبا الثاني". قد أعطتنا إحدى الكتابات البونية المكتشفة وسط المدينة نفسها بعض التوضيحات حول نظام المملكة المورية وادارتها المحلية ، كما يؤكد أيضا عدد الأجيال التي تعاقبت عليها والمشار إليها من خلال الكتابة نفسها و أن المدينة قد كانت موجودة منذ منتصف القرن الثالث وربما من قبل [٨] نفس الملاحظة يمكن الإشارة إليها بالنسبة لمدينة كرتة [٩] ، ومدينة مكثر Maktaris[١٠] و مدينة دوقة Thugga[١١] وتناوبت الأسماء الفينيقية مع الأسماء النومدية والمورية في نفس العائلة.

إلى جانب المدن الكبرى والعواصم المشار إليها ، توجد أيضا العديد من المدن الصغرى داخل الآراضي النوميدية تحمل نفس المفاهيم الحضارية، مثل مدينة "مكومادس Macomades تيبازا النوميدية و "كالاما" Calama .. وزوكابار Zuccabar في مقاطعة موريطانيا القيصرية فيما بعد.

في الحقيقة كل مدن المملكة النوميدية والمورية سواء كانت ساحلية أو داخلية وإن كانت تحمل اسما فنيقيا أو موريا فإنها تعتبر كلها مراكز حقيقية للثقافة البونية[١٢] حيث وجدت فيها منتوجات بونية كالفخريات التي نجدها في "سيرتا"وفي كل مرافئ الساحل وحتى في أقصى الغرب في مدينة "فولبيليس" (Volubilis) [١٣]تمثلت أيضا هذه الثقافة في وجود معابد وشعائر دينية بونية وخاصة في إستعمال اللغة البونية رسميا في الحياة اليويمية داخل حدود الممالك النوميدية وحتى المورية والدليل على ذلك هو الاهداءات الدينية وكذا النصوص الادارية القليلة المحفوظة إلى يومنا هذا[١٤] ثم النقود المضروبة باللغة البونية دائما . دامت هذه التأثيرات حتى بعد الفترة التي حطمت فيها قرطاجة ، وشملت كل شمال افريقيا بمختلف ممالكها ومقاطعايها بإستثناء مدينة "دوقة Thugga التي حاولت تحت حكم "مسينيسا" ثم "ميسيبسا" استعمال اللغة الليبية في النصوص الرسمية.[١٥]

استمرت اللغة البونية مدة طويلة بعد سقوط قرطاجة ، حيث يقول القديس أغسطس

---

[8] - Camps (G) « Apropos d'une inscription punique , les suffètes de volubilis au III et II siècle A.V.J.C » dans B.A.M, TIV PP M 423 - 426

[9] -Berthier (A) Charlier ® Le sanctuaire punique d'ELHofra et Constantine, Paris 1955

[10] -Picard (G), « Civitas Mactaritani » in karthago VIII 1957

[11] - Chabot(J), R.I.L N° 1 et 2, 1942

12 - Camps (G) , Réflexions …P6

13 - Jodin(A) « un brule parfum punique de volubilis » in B.A.M, t VI, PP 506-510

14 -Fevrier (J.G) , La borne de micipsa « in B.C.T : H, 1951, PP 116-120

15 - Chabot(j), R.I.L N° 1-2-3-4-1942

St Augustin بعد خمس مائة سنة من سقوطها أن السكان المحليون و الأهالي المجاورين لمدبة "ابون" Hippone كانوا و لا زالوا يتكلمون اللغة البونية.
لم تكن هذه المدن الإفريقية ذات الثقافة البونية أراضي أجنبية محصورة داخل الممالك للأسف لم بيق من العمارة البونية إلا القليل

منظر عام لضريح دولة بتونس

واهم هاتيه المنشات توجد خارج الإقليم القرطاجي أي في الأقاليم النوميدية التي كانت في نفس الوقت سبب إنذثار قرطاجة. كما كانت أيضا بمتابة المركز الفني الوفي للثقافة البونية.وخير دليل على ذلك هو ضريح "دوقة"[١٦] ويمكننا أيضا ذكر الضريح الملكي " للمدغاسن" والذي يقع في قلب نوميديا . وإذا ما تعمقنا ودققنا في تقاصله وعناصره المعمارية مثل الحزات والتاج المقولب والأبواب الوهمية و باب السرداب، والطنف ذات الرقبة المصرية والتيجان الدورية، قد نجدها كلها عناصر إغريقية و شرقية لها أثر في المعالم الأخرى بقرطاجة، بغض النظر عن شكله العام الذي يأخذه من شكل البازينات ذات الدرجات . . هذا المبنى حتى ولو شيدته إحدى الأسر الحاكمة النوميدية في نهاية القرن الرابع أوبداية القرن الثالث ق-م فهو الثمرة المتقنة التي نتجت من التقاء التأثرات الإغريقية الشرقية التي ذخلت عن طريق قرطابة مع التقاليد الليبية. فبذلك يسحق بكل منطق صفة معلم بوني[١٧] .

(منظر عام لضريح دوله بتونس)

عناصرمعمارية لضريح المدغاسن:

16 - Lezine (A) « Architecture purique », dans Recueils et documents. Tunis 1960
17 - Camps (G) Réflexions….p-10

مدرج العدامس .

القاعدة الأسطوانية المتكونة من الأعمدة الدورية
يعلوها جائز أعمدة ثم الكورنيش المصرية ـ العدامس ـ

منظر جانبي بين الكورنيش ذات الطلق المصري ـ العدامس ـ

منظر آخر للكورنيش المصرية ـ العدامس ـ